متاهة من الشوارع والمباني ، ويسمونها في بعض الاحيان القصبة . طلب السفير البريطاني حماية من رماة البحرية ، امنت له ، ومنذ الليلة الاولى اصيب مبنى السفارة برصاص قادم من البسطة، والذي مر قريبا جدا من بعض جنودنا . اخبرني الرئيس شمعون انه امر اللواء شهاب قائدالجيش بتمشيط البسطة . لكن اللواء يرفض . نصحت شمعون بعزل شهاب واستبداله بضابط قادر على احياء الامن وسلطة الحكومة .. لكن الامور لم تكن بهذه البساطة.

اللواء شهاب رجل شديد الذكاء ، ينتمي الى عائلة مارونية كبيرة ، متخرج من سان سير ومن المدرسة الحربية الفرنسية العليا . يامر حوالي ٧ الاف جندي الى جانب ٢٠٠٠ درکي تتالف قواته من عدد شبه متساو من المسيحيين والمسلمين ، ويبدو ان هم اللواء الاساسي ،كان الحفاظ على وحدة جيشه . لذلك كان يخشى من ان اي هجوم على المتمردين ، سوف يؤثر على الخلافات الدينية بين العسكريين ، ويحمل العسكريين المتعاطفين مع المتمردين ، على العصيان ، وفي هذه الحالة ينفجر الجيش ويختفي.

لم تتدخل الحكومة الاميركية ، الا بعد ان اوضحت للرئيس شمعون ان لا مجال لمساعدة اللبنانيين ، الا اذا كانوا مستعدين للدفاع عن بلدهم . وها هو رئيس الدولة نفسه ، لا يملك اية سلطة على جيشه . وبالتالي لا يملك اية امكانية للدفاع عن نظامه . كان اللواء شهاب يهدد بالاستقالة ، بينما يكتفي الرئيس باعطائه مقترحات يتناساها اللواء . لكنه يعطي توصيات خاصة للذين تحت امرته .

تحادثت مع اللواء ومع هيئة اركانه . بدا لي انسانا مخلصا . عندما تدارسنا المشكلة مع الاميرال هولووي ، اتفقنا ان هذا الجيش رغم هزاله ، هو العامل الوحيد القادر على صيانة شيء من السلطة للحكومة اللبنانية ، التي لم تعد تسيطر الا على جزء صغير من الاراضي اللبنانية حوالي الثلث فقط ، وكان وسط العاصمة في ايدي المتمردين . كنت امل في اقناع اللواء شهاب القيام بتحرك جدي لاعادة الامن الى بيروت .لكنه لم يقم الا بتدابير خجولة لمحاصرة تحركات المتمردين داخل الاحياء بشكل تدريجي . كان شهاب راغبا في التعامل مع القوات الاميركية . وقدرت مع هولووي ان تأييده ولو المؤقت يكفينا للوصول الى اغراضنا المباشرة .

اخبرني هولووي عن الحادث الذي جرى في اليوم الاول لانزال القوات الاميركية ، كي يبين لي استعدادات شهاب الطيبة . فتاريخ لبنان البائس والذي يرجع الاف السنين الى الوراء ، تعرض لغزوات عديدة ابتداء من الاشوريين والفرس والرومان ، حتى المماليك والاتراك المعاصرين . وقد اتلف الاتراك آخر المحتلين «!» غابات الارز وابادوها . وقد نظر بعض اللبنانيين الى القوات الاميركية بوصفها جيش احتلال .كما قررت مجموعة من ضباط هيئة الاركان مقاومة تدخلنا . فبعد نزول رماة البحرية في مطار بيروت، اتجهوا الى المدينة على الطريق الوحيد المؤدي اليها ، دون ان يعيروا الانتباه الى كون ١٢ آلية اعدت مع اوامر باطلاق النار على رجالنا . وما ان علم ماكلينتوك بالامر ، وفي آخر لحظة ، حتى اتصل باللواء شهاب واقنعه بالاتجاه حالا نحو هذه الوحدة برفقته وبرفقة هولووي في سيارة السفارة التي ترفع العلمين اللبناني والاميركي . وصل شهاب الى ذلك المكان واعطى الاوامر بعدم اطلاق النار . وبذلك تجنبنا اشتباكات مأساوية .

لم تكن الاضطرابات محصورة بالقضايا السياسية الكبرى ، والانقسامات بين المسيحيين والمسلمين ، بل كانت هناك خلافات عديدة بين الجماعات السياسية والطوائف الدينية. فاستنادا الى التقاليد اللبنانية ، كان على رئيس الجمهورية ان يكون مسيحيا ، ورئيس الوزراء مسلما . كان هذا التوفيق يعمل على ما يرام وبرضى شمعون والصلح . فكلاهما طلب المساعدة الاميركية لقمع التمرد ، وكلاهما يتعاون مع ماكلينتوك وهولووي . لكن رئيس الوزراء كان هدفا لابناء طائفته الذين احرقوا منزله فدمر بكل ما فيه .

بعد فترة قصيرة من وصولي الى بيروت ، دعاني رئيس الوزراء مع السفير وبعض الشخصيات الاميركية لتناول الغداء في مقره